

أسباب الهدر الديموغرافي بالمغرب من خلال مخطوط "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين"

مقاربة لطاعون 1799م

عبد الحميد حدوش

كلية الآداب، وجدة

مقدمة

لعل الحديث عن ديموغرافية المغرب عبر التاريخ، وعن العوامل التي تحكمته في سيرورتها، تلقى بالباحث في الديموغرافيا التاريخية إلى الاصطدام بالعوامل الهدامة للسكان أكثر، من أن تسعفه على ضبط الشروط التي أدت إلى نمو وتكاثر تلك السكينة، أو يحصل على معلومات كافية عن المتغيرات الديموغرافية الأساسية كالزواج والخصوبة والولادات.... وإذا كانت المصادر المغربية لا تعد من الإشارات الدالة على الهدر الديموغرافي سواء منها السياسية العسكرية أو ما تخلفه المجاعات والأوبئة كأسباب مباشرة للانهايار الديموغرافي في العالم الإسلامي عامة والمغرب خاصة. فإن هذا المفعول السلبي للأوبئة بالمغرب في أواخر القرن الثامن عشر ممثلا في طاعون 1799م، والموجات الأولى من الكوليرا في نصف القرن التاسع عشر. هي التي يتحدث عنها كتاب العربي المشرفي، "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين".

غير أن المداخلة ستركز على مشكل واحد أغفله المخطوط ويتعلق بالمسالك التي تسربت منها الأمراض الوبائية : طاعون 1799م مثالا.

I - التعريف بالمخطوط ومؤلفه

1- أطوار حياة العربي المشرفي :

يمكن التمييز في حياة العربي المشرفي بين مرحلتين :

« الأولى : كانت بالجزائر مكان الولادة إلى نزوحه إلى المغرب في الأربعينيات من القرن التاسع عشر.

« الثانية : تعد مرحلة استقرار واندماج بالمغرب إلى سنة وفاته 1895 م. كتب معظم مؤلفاته بعد هجرته إلى المغرب وهي كثيرة تتعدى الثلاثين مؤلفاً¹ أهمها : الرسالة الذي استندت عليه المداخلة "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين".

2- التعريف بالمخطوط :

توجد نسخة من المخطوط موضوع الدراسة بالخرانة الحسنية بالرباط تحت رقم 2015 وعلى شكل نسخة مصورة من الخزانة العامة بالرباط بالرقم نفسه. يحتوي الكتاب على 131 ورقة، من الحجم القريب من الصغير. كتبه العربي المشرفي بخط جزائري مقروء، ميز الجمل والأعلام المهمة بحروف بارزة مكتوبة بالحبر الأسود وأحياناً بالحبر الأحمر.

صاغ مؤلفه "أقوال المطاعين في الطعن والطواعين" وفق تصميم واضح المعالم، متسلسل المحاور، تركب من مقدمة وسبعة فصول وخاتمة وتذييل. وعزز الفصل السابع بقاموسين، أحدهما لشرح الكلمات والجمل الصعبة، وثانيهما عرف بالأماكن والأعلام الواردة في الكتاب.

¹ العربي المشرفي، طرس الأخبار، بما جرى آخر الأربعين من القرن الثالث عشر مع الكفار، وفي عتو الحاج عبد القادر وأهل دائرته الفجار، تحقيق يوسف أخليص، رسالة السلك الثالث مرقونة، ص. 24.

II - وسائل المهدر الديموغرافي في المخطوط :

1- المهدر الديموغرافي بالمخطوط

اشتمل المخطوط على مختلف وسائل الوفاة من حروب، وكوارث طبيعية، وأوبئة متنوعة، وأمراض مختلفة. غير أنه أسهب في توضيح المفعول الديموغرافي السلبي للطواعين التي اجتاحت العالم الإسلامي، من صدر الإسلام إلى القرن العاشر الهجري. لينتقل إلى تسجيل الوفيات الناجمة عن الوباء الجديد (الكوليرا) بالمغرب وغرب الجزائر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي.

وقد عرّف الطاعون وفصله عن غيره من الأوبئة من خلال تقديم تعاريف لغوية وأخرى فقهية وثالثة طبية.

إذا كان قد وضع مجالية الطواعين التي حدثت في المشرق الإسلامي فإنه لم يتطرق إلى مسار تنقل الطاعون نحو الغرب الإسلامي. وإن أشار إلى حركة الكوليرا بين مدينة الجزائر ووهران وفاس.²

فهل الأمراض الوبائية المذكورة في الرسالة خاصة الطواعين متوطنة أم وافدة ؟

وبالضبط هل الطاعون الذي أصاب المغرب سنة 1799م وافد أم متفجر من بؤر داخلية ؟ ذلك ما سيركز عليه التحليل الآتي.

2- مسالك تسرب الطاعون : الطريق البري والطريق البحري

يمكن التمييز داخل مجموعة مؤرخي الأوبئة بالمغرب بين اتجاهين : صنف يؤكد على دور المسلك البري وآخر يرجح أهمية البوابة البحرية.³

² العربي المشرقي، أقوال المطاعين في الطعن والطواعين، مخطوط بالخزانة العامة بالرباط رقم 2054، ص. 6-7

³ كلاسيكا، كان الطاعون يتسرب إلى داخل أوروبا عبر البر، انطلاقا من الموانئ الأطلسية بسرعة ثابتة، أولا من الجنوب إلى الشمال ثم من الغرب إلى الشرق وكلما تعمقنا في التحليل يتضح أن مجالية الطاعون معقدة، ولتبسيط المشكلة يتطلب الأمر تجزئتها إلى ثمانية مراحل يتعاقب فيها الطريقان البري والبحري.

J.N.Biraben , Les routes maritimes des grandes épidémies au moyen âge, in l'homme, la santé et la mer, Paris 1997, p.27.

١- الطاعون تسرب عبر الحدود البرية إلى المغرب :

ينطلق رينو من الخلاصات الثلاث التي توصل لها كاتب المجلس الصحي الأعلى M. Segur Duperyon الذي قام بدراسة مركزة لخصوصيات أوبئة شمال إفريقيا خلال القرن 18م.

- لا يظهر الطاعون إلا إذا كان متفشيا بمصر
- يدخل الطاعون إلى المغرب منتقلا من تونس إلى الجزائر
- إن طاعون 1799 وما سبقها من الأوبئة كلها انتقلت إلى المغرب عبر التراب الجزائري وما يعزز هذه الخلاصات الدالة على دور الطريق البري في تسرب الوباء الملاحظات التالية : إن طاعون 1799 أعلن عن بدايته بفاس ومنها تفشت عدواه، بينما لم تشكل طنجة وتطوان سوى آخر محطاته كما يتبين من مسار الطاعون ⁴:

مراحل انتشار طاعون 1799 :

الشهر	المجال المطعون
أبريل - ماي	فاس - الرباط
يونيو - يوليوز	الريف - مكناس - سلا - دكالة - عبده - مراكش
غشت - شتنبر	مازغان - أسفي - موعادور - تارودانت وبقيّة سوس
نونبر - دجنبر	تطوان - طنجة

Renaud, La peste de 1799, Hesperis, Tamuda, VOL. 1, 1921, p.170

- إن الطاعون قبل أن يصل إلى المغرب كان قد أعلن عنه في تونس ومدينة الجزائر عام 1796م، نشأ عن عدوى نقلها شخص سمي " ابن سماية " قدم على ظهر مركب من أرض الروم ⁵
- وينضاف إلى ما سبق، الإجراء الذي اتخذته السلطات بمليبية حيث أحدثت نطاقا صحيا حول المدينة وعطلت الطريق البري الرابط ما بين وهران ومليبية.

⁴ Renaud (H.P.J), La peste de 1799 au Maroc, in Hesperis, 1921, p.167

⁵ عبد الرحمان بن محمد الجليلي، تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، 1980، ج.3، ص. 262-263.

o وبالرجوع إلى طواعين ما قبل القرن 18، يعتبر Rosenberger : Triki وأن الحدود البرية شكلت ممرا تسرب عبره الطاعون إلى المغرب. فالصحراء لم تكن لها نفس فاعلية صحراء ليبيا أو صحراء العربية السعودية. إن طاعون 1557/1558 ظهر أولا بالريف. وكان أحيانا قراصنة الجزائر ينقلون العدوى أثناء رسو سفنهم بباديس وتطوان والعرائش.

o وكما كانت ساكنة المغرب مهددة بأوبئة الحدود الشرقية فإنها ظلت تعاني من أوبئة المحاور التجارية الجنوبية، إذ كانت تنتقل العدوى عبر القوافل الصحراوية وبلغ السودان من البؤرة الطاعونية الممتدة من واحات تونس إلى غرب إفريقيا بما فيها البؤرة الممتدة ما بين سواحل كلميم أو إلى سواحل موريتانيا. فهل بالفعل وجدت بالمغرب بؤر طاعونية ؟

ب- مصدر طاعون 1799 - خارجي أم داخلي ؟

لا تحسم الكتابات المهمة بطواعين المغرب خلال القرن 18 م في مسألة مصدر الطاعون. هل له بؤرة داخلية يتفجر منها دوريا ؟ أم هو وباء وافد ؟

من المبررات التي تعللها بها الدكتور رينو حينما عجز عن حل هذا الإشكال، وعدم التوصل إلى إجابة دقيقة :

- الخلط الوارد في الكتابات العربية ما بين مفهومي الوباء والطاعون.

- انعدام الوثائق الطبية.

لكن بالنسبة لطاعون 1799 شكلت مشاهدات القنصل الإنجليزي Jackson عنصرا إيجابيا ساعدت على الإمساك بالمصدر الخارجي له : ذلك أن الطاعون كان موجودا بتونس 1784 وبمدينة الجزائر 1797 وبإقليم وهران وتلمسان ربيع 1799م.

أي أنه أصبح على مشارف المغرب الشرقي، ينضاف إلى ذلك العلاقة الدائمة ما بين المغرب ومصر بحكم منسك الحج.

وهذا ما يثبت أن العوامل الخارجية هي المفسرة (المتهمة) وأن الطاعون قد تسرب إلى المغرب قادما من بعيد.

كما أن الكتابات الإخبارية المغربية لم تشر إلى أي طاعون في الفترة الممتدة ما بين 1163هـ/1750م و1212هـ/1799م⁶. ولا تساعد في الإجابة عن السؤال هل الطاعون وافد؟ وإذا كان وافدا من أي بوابة دخل؟

ج- الطاعون وافد من البحر

ما يستخلص من التعابير المستعملة في المصادر المغربية المعاصرة أنها تؤكد على كون الطاعون وافدا، لكن دون أن تحدد بوابة دخوله. فصاحب الجيش العرمرم كتب يقول: "وفي هذا العام [1212هـ] دخل الطاعون للمغرب وهم الحواضر والبوادي ولما كثر بمراكش رجع السلطان لمكناسه"⁷ بينما قال الضعيف كلمة "فشا في المغرب وفي سوس"⁸ و "انتشر الوباء بفاس وشراكة حتى عم جميع المغرب" بينما خلت مشاهدات القنصل جاكسون من أية إشارة تحدد مصدر الطاعون.

ومع ذلك قرر رينو أن طاعون 1799 وفد مباشرة من مكة إلى طنجة متقشبا في بعض الحجاج⁶. ووسعت السلع والهدايا التي أتوا بها مجال انتشاره.

كما أن بعض السلوكات اللاقانونية سهلت تسرب الطاعون إلى المغرب. منها:

- ✓ تهريب السلع المستوردة من مناطق الكرتينة.
- ✓ إفراغ الحجر الصحي من محتواه لأسباب دينية وأخرى سياسية. كعدم الاقتناع بجذوى الحجر الصحي.

⁶ Renaud, la peste de 1799 au Maroc, in Hespéris, 1921 p.167

⁷ سلوة الأنفاس، لم يذكر في تراجمه لأهل فاس أية وفاة بالطاعون ما بين 1164 هـ و 1213 هـ.

⁸ الجيش العرمرم، تحقيق مجموعة من الطلبة لكلية الآداب والعلوم الإنسانية بوجدة 1988، ص. 189.

⁹ تاريخ الضعيف، تحقيق محمد البوزيدي الشخي، ج. I، ص. 273.

⁹ طاعون منطقة الغرب 1786 تسببت فيه عدوى تسربت بعد ما رست سفينة Assomption، قادمة من مكة.

✓ وعدم رضوخ المخزن لطلبات الهيئة القنصلية إذ لم يصدر السلطان ظهير الكرتينة إلا عام 1797.

✓ أن الاحتياطات الإسبانية الصحية المضروبة على مليلية، كسرتها رشوة الحراس

3-دورات الطاعون

تتكرر سنوات الطاعون في المصادر بشكل رتيب لدرجة تدفع إلى الاعتقاد بأن الطاعون بالمغرب منشأه داخلي. لذلك يعتبر الحسن الوزان بأن الطاعون يتكرر كل خمسة عشر سنة في المغرب.

وترجح بعض دراسات مؤرخي الأوبئة دور الجرذان، على اعتبار أن لها القدرة على احتضان الوباء وتخزين العدوى لفترات تتراوح ما بين 10 و20 سنة. وبالأخص جرد "الموريون" المؤلف في السهول الأطلنتية المغربية، فكان كل طاعون بشري يسبق بجائحة فأرية¹⁰. وبوفرة الجرد توفرت البراغيث (يضاف إليها براغيث الكلاب والقطط) التي أصبحت تقوم بدور الناقل الأساس للطاعون إلى القوارض البرية ثم إلى الفئران المنزلية، وأخيرا تنتقل العدوى إلى الإنسان. وبما أن دورة الحياة لدى البراغيث قصيرة لا تتعدى أسبوعين أو ثلاثة لتتحول إلى يرقة، فإنها تتكاثر في درجة حرارة غير متطرفة لا باردة ولا حارة¹¹، بل المناسب لها حرارة معتدلة (10°C إلى 30°C) وهذه خاصية مناخية للواجهة الأطلنتية المغربية.

وبما أن مدة حياة البراغيث وظروف تكاثرها تخضع للفصول فهي تتم في البلاد الحارة صيفا، وفي البلاد الباردة تبلغ ذروتها خريفا. وفي ذلك ما يفسر دورات الطاعون الفصلية.

¹⁰ Bernard Rosenberger et Hamid Triki, Famines et épidémies au Maroc aux 15 et 16 siècles, Hespéris Tamuda, vol.15, 1974, p.43.

في الجرد الذي قدمه J.N.Biraben حول تاريخ الطواعين ومجالياتها في العالم المتوسطي طرح أسئلة بدون الإجابة عنها منها عدم تفسير ظهور الطاعون بالمناطق المعزولة. راجع :

J.Ruffie.J.CH.Sournia, les épidémies dans l'histoire l'homme, Paris, 1995, p.101.

¹¹ جلال الدين السيوطي، ما رواه الواعون في أخبار الطاعون، تحقيق محمد علي البار، دار القلم، دمشق، 1998، ص.35-36.

والخلاصة أن المعطيات المناخية وبيولوجية الجرذان والبراغيث مؤشرات قد تقوي من فرضية وجود بؤر طاعونية بالمغرب.

ومن الحجج التي اعتمدها كليرنويل Klernoel لإثبات المصادر الداخلية للطاعون يمكن ذكر :

« مسارات انتقال العدوى، إذ لاحظ أن الطاعون غالبا لا يسلك المحاور الرئيسية، بل يتفشى من خلال الطرق الثانوية أي القروية.

« قلما تعرضت للطاعون مناطق كالرحامنة وزعير لصعوبة حفر الجرذ في صخورها الصلبة.

« شكلت كتلة جبال درعا واقيا حمى مراكش من الطاعون.

« حصن ضعف سمك التربة مدينة البيضاء من الوباء.

« تأصل الطاعون في السهول الخصبة المنتجة للقمح حيث يتوفر الغذاء للجرذ وإمكانية تكاثره وتوالده.

« إن الطاعون مرض البلاد الفلاحية، فتردداته بمدن فاس الرباط سلا ليست هي نفس ترددات بالدار البيضاء مثلا¹².

« وبشأن للعربي المشرفي في رسالته السالفة الذكر، الطاعون لا يرتبط بالمجال وإنما هو عقوبة إلهية تقوم ما انحرف من سلوكات البشر أينما كانوا.

¹² Clernoel, La peste au Maroc, Etude d'épidémiologie et de géographie, Bulletin de la société de géographie du Maroc, Tome III, Fas - 1 - 1922, p. 299- 300.

قدر J.N.Biraben التي يقطعها الطاعون ب 75 كلم/ اليوم وهو متوسط يمكن أن يتم في ثلاثة أيام أو ثلاثة أشهر باختلاف المسالك التي يقطعها : الأودية أو المحاور الكبرى للممرات

les routes maritimes..., op. cit., p. 101

4- حصيلة وفيات طاعون 1799

المدينة أو المجال القروي	معدل عدد الضحايا في اليوم	عدد الوفيات الإجمالي	عدد السكان	% الوفيات
فاس	1200 إلى 1500	65000	120000 عام 1799	54.16
مراكش	1000	50000	60000 عام 1800	83.33
أسفي	28	5000	12000 عام 1852	41.66
تارودانت	800	-	-	-
نواحي حاحا	-	493	500	98.6
قرية الدويبات (موغادور)	-	100	133	75.18
الرباط	-	20000	30000 عام 1799	66.66
سوس 1214 هـ - 1800 م المصدر - المعسول ج 17 وج 3	-	انقطاع أعقاب 10 أسر + وفاة شيوخ قبيلة أمانوز + وفاة 12 يهوديا من ملاح إيلينغ	-	-

Renaud , La peste de 1799 , Hesperis , Vol. 3, 1921, p. 170-173.

استنتاجات :

- يتأكد مما سبق المفعول السلبي للأمراض الوبائية عامة : الطاعون قديما والكوليرا
- حديثا، على ديموغرافية المغرب.
- يصعب تحديد مصادر الطاعون : هل هي وافدة ؟ أم لها بؤر داخل المغرب ؟
- من المؤكد أن النزيف الديموغرافي للطاعون ممثل في وفاة عوامل الإنتاج أثر بقوة على القطاعات الإنتاجية، وأضر أو شل علاقات المغرب الخارجية.

- ما هو ثابت أن بعد كل أزمة ديموغرافية، إلا ويحصل انتقال جديد شرعي للثروات، وانسياب للأموال، واصطفاف اجتماعي جديد¹³.

- قديما تم توظيف الطاعون سياسيا من قبل العباسيين، حينما أشار أحد ولايتهم إلى قلة الطوائع بالشام كدليل على أحقيتهم للخلافة من الأمويين. أما حديثا فإن طاعون 1799 م خلص المولى سليمان من مناوئيه على السلطة، ودعم ماليته إذ أخذ أموال المنقطعين.

- كان الطاعون يصيب الشباب والأقوياء أولا ثم النساء فالأطفال وأخيرا الشيوخ.

- لكن في الحقيقة أن عينة الوفاة تختلف باختلاف الكتابات كما يتضح من المثالين التاليين :

"إن الوباء... قتال في الأكثر للرجال ويخلي الربوع والبلدان " كما ورد في "رسالة في تحقيق الوباء" لمحمد بن العاص.

"والموت يساوي بين الكبير والصغير والحقير والجليل" تلك هي خلاصة صاحب كتاب "تحقيق الظنون بأخبار الطاعون" لمرعي بن يوسف المقدسي.

¹³ بروديل - فرناند، الحضارة المادية والاقتصاد الرأسمالي من القرن 15م حتى القرن 18م، ترجمة مصطفى ماهر، دار الفكر، القاهرة 1993، ص. 98 ؛ يقول جان بول سارتر : " إن الطاعون لا يتصرف إلا كتصعيد للعلاقات هائل الطبقة: إنه يصيب البؤساء ويترك الأغنياء ".
- من الخلاصات التي توصل إليها J.Ch.Sournia et J.Rufié في مؤلفهما :

Les épidémies dans l'histoire de l'homme ..., p.104

"تغير ملاكو الأراضي، المنازل المتاجر، اننا نحضر تركيز وتجميع للثروات. اختفت النخبة في المدن وعوضتها نخب وافدة من مناطق أخرى، ومن شرائح اجتماعية جديدة ففي طوسكانيا بدأ صعود أسرة ميديسيس (Les Medicis)"